ساعة مع المتنبي

المغرب الجديد

السنة الثانية - العدد 9 - 10 - فبراير - مارس 1936

قد يكون هذا العنوان غريبا ولكنه العنوان الذي ارتسم في ذهني بعد أن تصفحت ديوان شاعرنا الخالد ساعة من الزمان، ارتسم في ذهني وما لبثت أن كتبت حروفه على الورق وأنا لا أدري ما أخط ولا كيف أعبر عن هذه الإحساسات التي بعثت في نفسي ولا عن هذه المشاعر التي تحركت في قرارة روحي عندما جالست المتنبي وهو يتلو على من الشعر أفصحه، ومن الحكمة أروعها، ويضرب على وتر هذا الإحساس الذي يتجلى إذا ما جالست العظماء، وتبينت أعماق ما تضطرم نفوسهم به التواقت إلى المجد وإلى الفخر، وما يصبون إليه من خلود صحيح.

فالمتنبي أبعد الناس أن يكون شاعرا فحسب أو أن يكون حكيما لا غير، بل هو هذا الشخص الذي يجمع في اتزانه العقلي إلى شعور الشاعر الفياض وحكمة الفيلسوف الفطري، شعورا بقوة تكتسح كل معنوياته لتتجه به إلى العظمة وإلى الشعور بها وتمثيلها في شعره الخالد وتصرفاته اليومية الفانية. فالمتنبي هو الشاعر العربي الوحيد الذي نظر إلى الحياة بمنظر العظيم، وتصورها أمامه حقيرة مهما ظهرت للناس بمظهر القوة والبطش، فصار يخترق السهل والوعر وهو لا يرى كل شيء عظيم إلا جديرا به، لا يلتفت إلى سلب الحياة ولا إيجابها، ولكنه ينظر إلى نفسه فلا يراها أوتيت ما تستحق من مجد وإعزاز، فيفيض شعوره ويغلى إحساسه ويندفع بشعر لا يقره عليه بسطاء المثقفين، ولكن يسجد أمامه أفراد لا يحمدون للأقدار تصرفاتها، بل يطلبون منها المزيد كلما قدمت لهم الجديد.

أجل قد تكون حياته مزيجا من محاولات فاشلة، وادعاءات فاترة، واتجاهات خاطئة، ولكن حياة العظيم لا تقاس بما تقاس به حياة أفراد المجتمع، ولا حسب سنن الوسط أو العصر، بل هى لتشعرك بقوتها، وتغمض عليك طريق المجد، لا تستقر لميزان، ولا تقف عند حد، بل تسعى وتسعى لتكسب الصفقة فإذا وقفت لا تطمئن، وإذا خسرت لا تيأس، ولا تفتر، وهى تدور حول مبتغاها وهو تبوؤ العظمة من كل الجهات، وتبرر كل وسيلة لغايتها، فهو لم يكن من هؤلاء العظماء الذين يكتفون بالنظرية المثلى يعتنقونها ولا يحيدون عنها، ينزوون في عالم الفكر يرتلون لذة عظمتهم غير العملية، بل من هؤلاء الجبابرة الذين تتجسم عظمتهم في الطمع وحبهم للحياة لا في التجرد عن اعراضها، ولكن في الاندماج في نزعاتها والتلبس بأهوائها.

هذا هو المتنبي الذي نقرأ شعره فنعجب بطموحه الفذ، ومطامعه الواسعة، وتطالعنا كتب السير بسيرته التي لا تعرف الخير الاصطلاحي من الشر الاصطلاحي، بل تعرض أمامك شخصية قوية تومن بنفسها، وتبرر عملها، وتسير شخصية عبرت عن مكنونات نفسها بشعر يجمع كل مميزات التفوق والخلود، ويتبوأ شاعره منزلة سامية بين شعراء العربية في متباين عصورها. فإنتاجه الشعري وإن وصف في بعض المناسبات بمعايب تافهة لا تخرج عن حيز الصياغة واللفظ، فهو جدير أن يخلد صاحبه دهرا طويلا، فتحتفل العربية بعيده الألفي احتفال دراسة وتفهم لهذا الشاعر شاغل الدنيا ويهتم كل باحث بناحية من نواحي خلوده، وحسبي أن أصور شعوري بعد أن خلوت بأشعاره مدة من الزمان، شعوري نحو نفسه الملتهبة حماسا إلى المجد والعظمة.

فساعة بجانب المتنبي تشعرك بقوته وبنفسه التي يتطاير شررها، والتي تبين لك عن مظاهر عظمتها جلية واضحة فإنك لا تكاد تسير في ديوانه جزءا يسيرا وتمعن النظر في معاني شعره حتى تراك مرغما أن تنظر للمتنبي نظرة بعيدة عن النظرة التي يصورها كل من كتب عن حياته ووصف لك سيرته، إذ يحاول المغرضون ممن ترجموا له أن ينزعوا عنه رداء

العظمة، ومجد العبقرية، بالنظر لبعض صفات اتصف بها مثل حب المال، ومرارة اللسان، ولكن الشاعر الخالد يظهر نفسه ويرغم الذوق الأدبي أن يعترف بما يحدث من مقاييس تحتذيه الأجيال كمثل من المثل الأدبية العليا الصالحة للبقاء والخلود أمدا طويلا.

أول ما يتجلى لك إذا ما جالسته هذه الحكم الرائعة التي تنطلق لا من عقل الشاعر ولا من علمه، ولكن من نفسه؛ تنطلق لتصير مثلا تردده الأجيال، وتتجاوب صداه القرون، فشاعرنا لم يكن بهذا الفيلسوف الذي يبحث عن ماهيات الأشياء، ويحلل عناصرها تحليلا عقليا، نعجب به، ولكنا قد لا نستسيغه فهو وإن اتصل بالمعري في ناحية الحكمة التي امتلأ شعره بها، فهو متباين معه، فالمعري بشعره وهو في عالم الفكر يستعرض النظريات، ويقلب المذاهب، أما المتنبي فهو يشعر بالحكمة الرائعة، ومصدره الوحيد نفسه، هى التي تغذيه، وهى التي توحي إليه جمال مظهرها، فإذا بأبياتها يكتب لها الخلود لا في بطون الكتب فحسب، ولكن حتى في الأفواه أيضا كلما شاءت أن تعبر عن قوانين الكون وأنظمة الحياة. فإذا جاز لنا أن نسمى هذه الناحية الحكيمة من إحساس شاعرنا باسم يدل على مدلولها خير دلالة فليكن (فلسفة فطرية) ، ولكى نتصور معنى هذه الدلالة تصويرا صحيحا علينا أن ننظر لمصدر فلسفة المتنبي الشعرية؛ فإن من الغريب أن تحاول جماعة من الأدباء أن ترد فلسفته إلى مصدر خارجي عن إحساس الشاعر ونفسيته، فتزعم أن أغلب حكمه مقتبسة من فلسفة يونانية أو إسلامية، ولكن شاعرنا لم يكن من طراز الذين تزودوا بحظ من العلوم النظرية الفلسفية وهو ليس بالشخص الذي يوجد مذهبا عقليا، أو الذي يعتنق مذهبا معينا في الحياة، بل هو شاعر يندفع بنفس الإحساس الذي في تياره كل شاعر صادق العاطفة، دون أن يتقيد بنظريات فرد أو مذهب إلا أن المتنبي غورا في الإحساس وعمقا في الشاعرية، فاستطاع أن يكتنه الحياة، وأن يعبر عفوا عن ناموسها؛ فمصدر فلسفته إذن فطري مستمد لا من تجاربه ولا من ثقافته ولكن من شعوره بالحياة.

وثاني ما يتجلى لك أن تشعر بقوة نفسه واعتداده برجولته قوة تتسم أمام عينيك واعتداد تلمسه في كل قصيدة ليسا من هذا الفخر المبتذل الذي أصيب به شعراء كثيرون الذين قد تبتسم في بعض الأحيان وهم يعرضون عليك بضاعتهم، ولكنه فخر رجل تشعر باحترامه وتراه جديرا بكل تجلة لا مفر لك من أن تفسح له حيزا من صدرك ومكانا من ذاكرتك لتحفظ أبياته وترتل فخره كأنما أنت شاعره.

ذلك الفخر يصور نفسية الشاعر الذي يحلم بالمجد، وإن لم يسع إليه من الطرق التي تؤدي إلى المجد، فهو وإن خاطب الملوك والأمراء لم ينزل بمركزه دونهم، بل تحدثه نفسه دائما أنه عظيم فينطلق ليردد:

وفـــؤادي مـــن المـــلـــوك وإن كا ن لـــســـاني يرى مـــن الـــشـــعـــراء

فخر ساذج ولكنه فخر رجل يشعر بشيء في أعماق نفسه، فالرجل في كل محاولاته سعى للمجد، وأحب المجد، ولكنه يكتسب إلا بعض المجد، فلم يكن فخره يعبر عن بعض هذا المجد وإنما عبر عن نفسه كأنما أوتيت من المجد جميعه ففخر برجولته واعتد بقوته وحرص أن يزيف من يقف في طريقه.

فالمتنبي لم يكن بهذا الشاعر الذي يرتجل القصيدة البديعة المعاني، المنسجمة التراكيب فحسب، بل كان يضيف إلى تلك الشاعرية الفياضة إحساسا عميقا بقوة نفسه، وطموحا غريبا إلى كل شيء تصوره الحياة رفيعا، ومثلا من المثل العليا.

وإليك الخلاصة. لقد طويت ديوان شاعرنا وأنا أردد هذ التساؤل: أى إحساس يصدر هذه الحكمة الرائعة؟ وأية نفس تعتد بقوتها إلى هذه الدرجة؟ وأى روح يطمح هذا الطموح؟ إن هو إلا عظيم لم يفسح له الدهر مجال الحياة إلا بمقدار، فلم يتبوأ إلا رتبة شاعر، ولكن أى شاعر هو ... ؟ هو شاعر النفس العظيمة خالد ما خلدت نفس الإنسان، وكفاه ذاك فخرا وعظمة.